



هَسْعَدُ

وَلِيَّةُ رَبِّي

وَالْبَارِدَةُ

هو ... فقد كان في القرية يبحث عن ملجأ يأوي اليه ،
وعندما يؤس اتجاه نحو البيت وحفر رماد الطابون
واستلها ثم تمنطق بالسحلحك ويم وجهه شطر الفراغ ..

آه ايها الليل المرغ بالدفء ، فليأكل الصقيع
وجهي ، لكن النسيم اذا ما داعبه سوف أقصه بهذا
الخنجر نصفين .

جلس على تلة تشرف على القرية ... خفتت
الاضواء حتى لم يعد يميزها ، داعبت أنفه رائحة طوابين
القرية فسحت من عينه دمعة مسحها بعنف ونهض ..
ثم عاد ليجلس بعد أن قرر معرفة موقع بيتها ، لكنه
لم يستطع تمييزه ، فبكى ...

سأل نفسه ان كان يستطيع العودة ليملأ جرابه
بالخبز لايام ، لكن وجه أمه المتجمد ساعة رحيله أوقف
فيه هذا الخاطر .

قال لها وحياة عمري يا يمًا ، هذا زور وبهتان ،
لكنها ظلت صامته ، قال لها لقد فقدت زوجك فلا تفقدي
ابنك يا يمًا ، لكنها ظلت صامته ، حدثها عن طفولته وعن
حبها له وعذابها من أجله عله يستميل قلبها لكنها ظلت
صامته ، ثم يؤس عندما تذكر فجأة يوم جاؤوها بأخيها
ملغوفًا بقطعة خيش وقد قدّ جسده بالسكاكين فقالت :
يا رجال وين النخوة ، وتقدمت صفوف تسعة جاؤوها
بائنين من مستعمرة مشمار ، حدث نفسه بأن قلبها
كالصخر ولن ترقّ أو ترجع عما عزمته ، ثم قبّلها في
جبينها فرأى خطوطه تتقوس اشمئزازًا ورحل .

الى أين ، فلأدفنها نهارًا وأعود اليها في الليل ،
فرجال الشرطة مثل الجراد ... والطعام ، آه من هذا
البطن الدنس ، لو كان بإمكانني بقره ما قصرت . وتفاحة
... ما أقسى تفاحة يا مسعد ، لم تصدق رغم أنني
حلفت لها بخديها ...

جفّ حلقه واشتاق لبعض الماء .. عوّل أن يسير
الى قرية مجاورة وببيت في المصافة ، لكنه خشي
الوشاية فعدّل . أحسّ بالجوع فشمتم نفسه ، حاصره
البرد فاحتدّ وأرّخى قبضته في الهواء ... انثالت عليه

فجأة نبت من الفراغ ... لوى عنان فرسه واتجه
نحو البيت ... طرق بعنف فلم يفتح له أحد ...
وعندما ولجه قسرا طالعه وجه أمه محنظا مثل تمثال
مرمرى أخرس ، بكى على صدرها وشمّه بعنف ، لكنها
ظلت ممددة تنبع من حواف ثوبها رائحة زكية نفاذة .

تفقد جسدها عنه يعثر على خرق مفتعل فيه لكنه
توقف فجأة ... وهنا أدرك ان الموت نهاية كل شيء
حي ، فقام بتكفينها ودفنها على الطريقة التي يراها
العرف لاثقة بموت عظيم ... ثم عضّ بأسنانه على ثوبه
الفضفاض وحمل بارودته وأطلق ساقيه للريح .

منذ زمن ... والناس تحشو بواريدها بالملح الذي
يقتطمونه من خبز الاطفال ، كان مسعد فلاحا ينام على
أرض غرفة محرك الماء الذي يسقي البياره ، وعلى ذمة
اصحاب الالسنه الطويلة ، أحب مسعد « تفاحة » تلك
التي كانت حمرة خديها تصرع شبان القرية ... وعلى
ذمتهم أيضا ... ان أباه طلب مهرا لها ثلاث ليرات
ذهبية وقطعة من أرض أبيه ، أما الليرات فوعده أبوه
بتدبيرها ، لكن الأرض كانت عزيزة ، فاحتدم الخلاف
بين الاب وابنه الى أن كان يوم عاد فيه مسعد الى البياره
ليرى جثة والده تعوم فوق مياه البركة ، صرخ واستنجد ،
لكن الناس رفضوا أن يصدقوا موت الرجل الا على يد
ابنه ، وانتقلت العدوى الى « تفاحة » فداست على قلبها
وحلفت يمينا ان تتبرا من حب مسعد أمام أمه ، وهكذا
انتقلت الجرثومة الى أمه فعزمت على الا تكلمه مدى
العمر .

قال شبان القرية : يا جماعة ، مسعد شيخ
الشباب ، ولا يعقل أن يفعلها . وقال آخرون بأن الحب
أعمى ، وفئة ثالثة قالت ان الذي يحمل روحه على كفه
ويخترق المستعمرات يربأ أن يفعلها . وسمع الذين
يعرفون مسعد ، فوضعوا اصابعهم على شفاههم وطلبوا
كتمان أمر مسعد والبارودة ، فالانكليز يجوبون القرى
بحثا عن الثوار ، والكلمات تنقل مع الريح الى المنسذوب
السامي فيقص عمره ، واحتد عدد من الحاضرين فقالوا
مسعد رجل ، فلنقاطع كل من يحكي على مسعد ، أما

تفاحة قبل النوم فلمنها ... تذكر أمه فبصق ... رأى وجه أبيه فلعن الدنيا ... ثم قام من فوره يخبّ في العتمة .

الم يسر طويلا ... عاد وكأنه قطعة من التلة ... فلتفارقني روعي ان فارقتك يا تفاحة ، وعندما يهدأون ستصبح خطواتي واسعة ، فأقتحم البيت وأحملها على ظهري وأغادر ...

وفي الهزيع الاخير أخذت خطواته تقترب من البيت ، وبخفة صعد الى سطحه . ومدّ بصره نحو ساحته ، وهناك رأى الاجساد مصفوفة مثل عنب العساكر ، اصطدمت عيناه بوجهها ، حاولت ان تصرخ لكنه همس : انا مسعد يا تفاحة فلا تجزعي . تحركت أمها فأطبق شفتيه ، أشارت له ان يغادر فاستعطفها بأن بسط لها كفيه ، تسللت من مكانها وارتقت السلم اليه ، لماذا جئت الى هنا ؟ يا تفاحة ، وحياتك ما عملتها ، ليغضب مني كل الناس ولتقاطعني امي لكنني احتاج اليك . ما هكذا يفعل الرجال يا مسعد ، ان أفراق اخوتي وطموك . كل شيء يهون الا رضاك يا تفاحة . بدأت أشك في شهامتك التي تحدث عنها الناس . لكنني أبيع كل شهاسي لقاء اقتناعك ببراءتي ، لم أفعلمها يا تفاحة ، لقد أصبحت كالكلب الاجرب ، كلهم يطردونني ويتفاضون عن كل ما قدمت لهم . لقد سمعوك تهدده قبل موته بيوم واحد . كانت ساعة شيطانية . وعندما أقدمت على فعلتك كانت ساعة شيطانية ؟ يا تفاحة ، ابي قطعة مني ، فكيف أقصرّ لحمي بيدي ، اني احبك فلا تخذليني ، واحبك مثلما تحب الشجرة العطشى قطرات الماء . لكنني لا أحتمل رؤية الناس وهم يقولون قد تزوجت من قاتل أبيه . يا تفاحة ، وحياتك حبك بريء انا ... غادر والا قطعوك . سمعا ثفاء شياء فقالت له طلح النهار ... قال لها ساغادر ، لكنني احلف لو ان كل مسامير الدنيا قد غرست في جلدي فلن انسأك ... رأى دمعة على خدها لمعت رغم سواد الليل ، ثم انجبت نحو السلم وأخذت تهبط بتؤدة .

يا يمأ المشوار طويل والدنيا لا تعرفني . وقد سدت كل المنافذ في وجهي حتى أنت . ضحكت بسخرية ولم تجب . انسحب الى الطابون وحمل رزمة من الخبز الساخن وغادر ... وصل الى البيارة والمعصافير تنطّ على حواف البركة ، فلاظلم هنا أفلح الارض وأبرعها ، وفي الليل أفوص على مستعمرة مشمار ... يا ويلي ... ان غادرت جفّ الزرع ويبس البرتقال وماتت الحياة ، وان بقيت قالوا تنعم برزق أبيه ، أيتها العصافير دليني على الطريق ، لكن العصافير لم تدله ، وبقيت تفرق فرحة بطلوع النهار .

بكت امه فسححت تفاحة دمعتهما ، قالت لها : يا ولدي جاءني جائنا فما أطمعته ، وأتاني مفرورا فما دفأته ، بعد رحل يا تفاحة ، لكنه سيعود اليّ وفي جعبته ما يشفي غليلي .

نظرت اليها تفاحة مشففة ... قالت : كثيرا ما حدثني فليبي ان مسعدا مثل شعل الشمس بريء ونظيف .

قالت أمه : انما فعلت ذلك لأبم فيسه العزم وأحضه على معرفة اليد التي امتدت الى أبيه .

... غصت ، انجست الكلمات في حلفها . حاولت ان تتكلم لكنها لم تستطع ، بكت بحرقة ، ثم أنها لما هذات تليلا ضربت خديها براحتها مرات ومرات حتى استحالتا قطعة من الحرير الهندي المورّد ، وانسحبت من الدار تتعثر وشفتها السفلى ترتجف بعنف .

قال أصحابه : قد اختفى مثل كومة ملح يقصصها الرذاذ ... أخبار تقول بأنه احترف زيارة المواخير في المدن لا يخرج منها ابدا .. ذهبنا الى أحد المواخير لكنه لم يكن هناك ... أخبار أخرى تقول انه في القرية ... بحثنا عنه فلم نجده ، الولد خضر الذي اصطلح الناس على تسميته مهجولا قال لنا مرة انه هنا ، وأشار الى قلبه ، رمت القرية اجدع شبانها الى الموت .

طرق الباب بتؤدة ففتحت له امرأة عجوز ، القت اليه نظرة عجلي ، كان السلاحك يتدلى من وسطه ويسطدم بفخذه ، وعين البندقية شاخصة نحو السماء ، اما لباسه فقد لوثته الوحول وتدلّت منه المزيق والشرايط . قالت له مرحبا بالثوار يا ولدي ، يا ويلي ، الآن قلب أمك مثل النار . دخل ابي غرفة يعوزها كل شيء .. رمى بنفسه على حصير ومد ساقيه ، جاءت اليه وكأنيما تعرفه منذ القدم ... سلم لها قياد البارودة والسلاحك . ثم ان يديها امتدتا الى نعله فخلعته ورمته به الى عتبة الغرفة ، وتسللت أناملها السي قميصه نكّ أزرقه بصبر وأناة ، نهضت وعادت بقمياز رتمته اليه وقالت : البس ، أنت في النهار حارس لمحرك المساء والبئر وفي الليل لا أعرفك ولا تعرفني ، ضحك بوهن ثم حطّ مرفقه تحت رأسه ومضى في نوم عميق .

أفاق والشمس تطل على رؤوس الاشجار ، بحث عنها في كل موضع فلم يجدها ، ارتاب قليلا ، لكن وجه البندقية أخذ منه الريبة ، وعند المحرك وجد ناسا ومنكاشا وحذاء مطاطيا لا يخترقه الماء ..

انساب الماء الى جذور الشجر عبر القنوات كافي تسعى دون توقف ، وعندما انتصف النهار كان عرقه على القمباز يرسم غيوما بيضاوية اخذت شكل الخرائط .

عاد الى الغرفة .. وهناك وجد رغيفا من الخبز وشيئا من الزيتون الاسود ... جلس فوق الحصير

أخباراً مزعجة . لقد ماتت تفاحسة وهم الآن يعدون لدفنها . ابتسم بسخرية وقال : لكننا نبعد عن تفاحة ثلاث قرى . قالت : أغيب في النهار فألتقط أخبارها في كل يوم . . . نظر إليها فرأى علامات الجد على وجهها ، رقصت سفته السفلى ، غضب . . . ابتسم . . . ضحك . . . وضحك . . . ثم اعتلى ظهر الفرس ووكزها وطار . . .

كانوا يهيلون التراب عليها . . . تراجعوا لما رأوه . . . نظر الى وجه أبيها وأخوتها ففضوا من أبصارهم ، رأى الدموع في عيون النساء لا تستقط . . . ثم لوى عنان فرسه واتجه نحو البيت . . . طرق الباب بعنف فلم يفتح له أحد . . . وعندما ولجه قسرا طالعوه وجه أمه محتظا مثل تمثال مرمرى أخرس ، بكى على صدرها وشمه بعنف ، لكنها ظلت ممددة تنبع من حواف ثوبها رائحة زكية نفاذة .

تفقد جسدها عله يعثر على خرق مفتعل فيه لكنه توقف فجأة . . . وهنا أدرك ان الموت نهاية كل شيء حي ، فقام بتكفينها ودفنها على الطريقة التي يراها العرف لاثقة بموت عظيم . . . ثم عض بأسنانه على ثوبه الفضفاض وحمل بارودته وأطلق ساقيه للريح .

تونس الخضراء

صدر حديثا

التراث للفلسطيني والطبقات

تأليف

علي الخليلي

« غاية هذه الدراسة ، في الاساس ، مساهمة في تكريس التراث الشعبي العربي الفلسطيني داخل نمو الثورة وتصاعدها . . . واداة الدراسة المركزية هي الامثال الشعبية الفلسطينية باعتبارها جزءا اساسيا من التراث الشعبي الفلسطيني . . . وهي تؤكد القدرة الفذة لمجتمعنا العربي الفلسطيني على الصمود والحيوية والنمو والتطور طالما هو محتفظ بتراثه الشعبي ، هذا التراث الذي تحاول الامبريالية والصهيوتية ، متساندتين متلاحمتين ، قتله وتدميره ، انكارا لوجود شعب فلسطيني . . . ولذلك فان كل احياء واتراء ونشر وتعميق وتحليل للتراث الشعبي الفلسطيني بكافة اشكاله والوانه هو دعم للثورة وتكريس لها ، كما انه اضاءة للمنافى الفلسطينية ولحمة لها . . . »

من المقدمة -

منشورات دار الآداب

وأخذ يمزغ بتؤدة ، سمع صوتها تناديه فأصغى : « قد اتفقنا على أن تكون حارسا لا مزارعا . . . ضحك . . . وحياتك لاخلتي لك البيارة جنة . ضحكت عن أسنان مهترئة وقالت : جنة هنا وجحيم هناك ، وأشارت الى مستعمرة مشمار .

بزغت أعين النجوم ما بين الفيوم الرمادية . بم طلع القمر حيا يسير فوق صفحة السماء ببطء . . . اثالت عليه « تفاحسة » مثل النعاس ، جاءت وفي يديها السلة تحوي دجاجا مشريا وبضعة أرغفة . جلسا عند البركة فأطعمها وأطعمته ، مدت أصابعها تتحسس ذقنه . ومد أصابعه فحلل شعرها الفاحم ، وعندما انتقلت يده الى عنقها فرت كفضالة ، لحقها ، لكنها طلبت اليه بحزم أن يقف ، وقف مبهورا ، وحياتك لأبني لك غرفة وسط البيارة ونعيش أحسن من المندوب السامي . يا ولد يا شيطان ، تحاول أن تفريني لتمسكني . احبك يا تفاحسة مثلما أحب المطر . . . تقدم اليها فصاحت وحذرتة أن يقف ولا يضايقها . . . أفاق على صوت العجوز وهي تقول قد قرب الليل أن ينتصف ولم ترحل . . . ابتسم لها . . . نظر الى عين السراج فرآها تحترق . . . أضاف اليه بعض قطرات من الزيت ثم ودعها ومضى . . . وعندما امتزج الوقت بصوت الطلقات البعيدة ضحكت حتى كادت تستلقي على الحصير ثم نامت .

حدثني احدي عجائز القرية قالت :

لما اختفى مسعد ذبلت حدود تفاحسة ، جاءها عمها يوما وقد تأبط عريسا غنيا له ثلاث بيارات . . . رفضته تفاحسة ، قالت أمها البنت لا ترغب في الزواج فلا تجبروها ، حلف والدها بشواربه ان لم تقبل فسيطلق أمها ويجعلها تشخذ في الازقة ، احتدم الخلاف فاعترف صغير اخوتها انه قتل والد مسعد كي لا تتزوج من ابنه . سمعت تفاحسة فطار عقلها ، ولم تنتظر حتى يطلع النهار فطافت في القرية وقد حلت شعرها ولوحت بزنارها وهي تهتف : مسعد بريء . . . قتله أخي يا ناس . . . مسعد بريء . ضربوا على أكفهم . . . واجتمعت النساء حلقات في البيوت يتحدثن عن جنون تفاحسة ، ولم ينتصف النهار ، حتى عثر الناس على جثتها غريقة في البركة التي قتل بها والد مسعد .

قالت له العجوز : قد أجدت الفارة . ضحك وقال : غدا سترين . قالت له : يا مسعد ، لماذا تغير اسمك ولا تحكي لي قصتك ؟ . . . وقف مبهورا ، قال لها : كيف عرفت اسمي ؟ قالت : ول يا مسعد ، قصتك وتفاحسة تخترق الرؤوس مثل الرصاص ، لكني يا بني أحمل لك